القسم الثانى

فرنســـا ومستعمراتها

بقـــلم أحمد رمزى

فرنسا والحرب العالمية الثانية : بين الديموقراطية والفاشية

كانت فرنسا فى وسط براثنها لتنفيذ هذه الطفرة الصناعية لكى تعوض ما فات منها حينما قامت الحرب العالمية الثانية ، جاءت هذه الحرب وهى منقسمة فى الداخل ، فالروح الرجعية التى تفشت فى عدة بلاد بأوروبا وأفريقيا وآسيا وأخذت فى فرنسا مظهر العنف فى مظاهرات الكونكورد سنة ١٩٣٣ ، وهذه الروح لم تكن قد ماتت فى سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئة التى أشرنا إليها من أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج . وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما[1] ، لا حباً فيهما أو رضوخاً لإرادتهما بل لأن الوطنية تملى بأنه يجب تحمل كل شىء فى سبيل السلم حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعى ولو كان فى ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

صراع بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديموقراطية ممثلا فى روح الجماعات والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعاً لا ترغب فى الاندفاع على طريق غير مأمون العاقبة : يفقد فرنسا مركزها الأدبى كدولة عظمى إذا حنثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ويفقدها صداقة حليفتها بريطانيا ، تلك الصداقة التى بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وأكسبتها المواقف الاستعمارية فى مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام حادث الغدير فى مراكش سنة ١٩١١ ، وكانت العامل الأساسى لكسب حرب ١٩١٤—١٩١٨ .

أثر بريطانيا فى سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملى باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطانى نفسه ، فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران وموقف إيطاليا المعادى أن أراضى الأمبراطورية الفرنسية ستكون فى السلم والحرب الممر الطبيعى للطائرات البريطانية إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط : لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين وما يفرضه تعاشق حقوق الارتفاق بين الأمبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان أن حكمت فرنسا حكومات بقيت حريصة على محالفة بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الأمبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم بونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الأمبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

الحرب العالمية الثانية ٣٩—١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية :

جاءت الحرب فرت شهورها الأولى وتحملها الناس ، ثم اشتدت وطأتها على فرنسا وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية وتفكك الأحزاب الحاكمة وخيانة رجال الصناعة وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلا ، وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا عام ١٩٤٠ ، وهو أن يحتل العدو بلدا أوروبياً أو جزءاً منه بجيوشه وتبقى أراضى المستعمرات من غير احتلال ، وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال

(١) يقول أندريه تيليب إنها تعاونت مع المحور مدة الحرب وحصلت بذلك على أرباح طائلة

La droite industrielle a Collaboré avec L'ennemi et a realisé dans ses opérations de Coquets Bénéfices.

ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهي الأمر بابرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ . أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الأمبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية معبأة للدفاع عنها ويستمر ذلك شهوراً ثم سنوات ما دامت الحرب قائمة ، فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلما بعدت نهاية الحرب .

فهناك فريقان يتحاربان حرباً مميتة ، وهناك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم ، فما هو حكم الأراضي التي سلمت أهي دار حرب وقتال أم هي على الحياد ؟ لا شك في أن القسم الفرنسي الذي يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة ؟

الهدنة سنة ١٩٤٠ والمستعمرات فرنسا :

كنت في بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذي أرادت فرنسا أن تظهر به غير موجود ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية فيضطر للهبوط في أراضي سوريا ولبنان فاتخذت السلطات الفرنسية معها في الحوادث الأولى الاجراءات التي ينص عليها باب الحياد في القانون الدولي ، وكان للألمان لجنة عليا في فيسبادن تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع ألمانيا لا تجعل من فرنسا ومستعمراتها بلداً محايداً ، وما يسري على المستعمرات يسري على الأراضي المشمولة بالانتداب : وبناء على ذلك أفرجت السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطيارين وسمحت بالمرور والنزول في المطارات ، فكان من بريطانيا أن قذفتها بالقنابل ووجهت حملتها لاحتلال أراضي سوريا ولبنان .

حالة سارة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة الحرب أوجدت في أراضيها نوعاً من الحكم استفاد منه الفرنسيون للوقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى في النهاية إلى خسارة أسطولهم واحتلال الألمان والطليان لتونس : إلا أن هذه الحالة لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للامبراطورية وأثرها وأهميتها وما ينتظر منها وأنها قوة المستقبل ودرع الشعب الفرنسي وغير ذلك مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من محطات اللاسلكي .

انقسمت فرنسا إلى فريقين : حكومة فيشي وحركة الجنرال ديجول ، واتفق كلاهما على أمر واحد هو الاحتفاظ بوحدة الأمبراطورية وعدم التفريط في أي جزء منها ، وترجع الأخطاء وأعمال العنف التي ارتكبها ممثلو فرنسا في القطرين الشقيقين سوريا ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم تمكناً أعماهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقيا قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلمية في أنحاء العالم تقول : إن الأمبراطورية وشعوبها قد قامت بأسرها اشد أزر الجنرال ديجول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضي الوطن المحتلة ؛ واتخذوا هذه الدعاية دليلا على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية ، بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسي وفرضها بقولهم إن المستعمرات قد حملت عبء القتال عن الوطن الأوروبي المحتل فهي إذن ساهمت في تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة منه وننقل هنا ما كتبه بول أميل فيار ، لأن مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تحارب في مستعمراتها [1] :

Pour La première fois en effet La Métropole est Occupée et La France se bat dans ses Colonies Powl Emile Viourd

لماذا لم تحتل ألمانيا الأمبراطورية الفرنسية :

إن السياسة التي أملت على ألمانيا ترك الأمبراطورية الفرنسية

(١) راجع: Essai d' une Organisaton Constétutionnelle de La Communité Francaise

تحت إشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة بل هي إحدى المعميات التي سيتساءل عنها مؤرخو الحرب طويلا . فقد تكون هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لا يزال العالم يجهلها تماماً .

فمن قائل إن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من أنظمتها الدستورية واتجهت اتجاهاً فاشياً ، فمن الطبيعي تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض التساهل بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل إن الغرض الأساسي الذي رمى إليه هتلر هو أن يجعل الأمبراطورية الفرنسية يوماً ما في صفه أمام الأمبراطورية البريطانية في أفريقية . وذلك لأن :

لفرنسا سياسة أوروبية وللمستعمرات سياسة أمبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأي إنه إذا كان لفرنسا سياسة في القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان وهي تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها ، فإن للامبراطورية بحكم موقعها الجغرافي ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جلياً في أن الفرنسي في القارة الأوروبية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسي المقيم بالمستعمرات الذي يفكر بالأسلوب الأفريقي الاستعماري وينظر إلى عظمة فرنسا في إمبراطوريتها نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوروبية وما تفرضه من محالفات وصداقات .

فإذا تركنا جانباً المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية ، تبدو الأمبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى وهي في نظرهم كائن حي له ما لفرنسا من مشاكل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية .

وقد تتفق السياستان وقد تختلفان في الشؤون الخارجية ، أما في الشئون الداخلية فقد ظهر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات في محاربة كل إصلاح يرمي إلى إشراك الوطنيين في الحكم ، بل فرضوا إرادتهم وأجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مراراً ولذلك توهم المختصون بشؤون الاستعمار ألا مخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد التي تجعل من فرنسا والأمبراطورية كتلة واحدة في الخارج والداخل .

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الإقليمية والحربية في سيرها وتطورها تواجه في النهاية مصالح الأمبراطورية البريطانية في أفريقيا وأكبر ضربة لهدم التحالف الفرنسي البريطاني تأتي من تشجيع فرنسا للأخذ بسياسة إمبراطوريتها في الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على :

التناقضات القائمة بين إمبراطوريتين عالميتين :

فقالوا إن سياسة الوفاق والصداقة سهلة وتبدو ضرورية في أوروبا ولكنها صعبة وغير محتملة في أفريقية أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لا يسير أشواطاً بعيدة في أفريقية من غير أن تبرز المتناقضات : وهي الأمور التي تتطور إلى مشاكل أو أزمات فيستعصى حلها لأن مردها إما إلى السياسات العليا أو إلى القواعد الثابتة الملازمة لطبائع الأشياء : وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ، ومشاكل بريطانيا في طرابلس الغرب وبرقة ، في الوقت الحاضر وتعذر إيجاد حل لها .

أمل ألمانيا في استغلال التنافس بين الدولتين:

كان الألمان على إلمام تام بالحالة النفسية والعسكرية في الجيش الفرنسي . وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الأفريقية، وهم على علم بطاقة هذه الشعوب ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ، ولكنهم أبقوا مع ذلك على وحدة الأمبراطورية الفرنسية وتركوها بيد الفرنسيين لأنهم توهموا أن التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عداء ، وقد مرت حوادث كانت نتيجتها التصادم والقتال ولكن الأمبراطورية الفرنسية لم تتحرك بل إن القتال الذي نشب في سوريا ولبنان انحصر هناك .

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة لدرجة أنهم توهموا بأن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الأمبراطورية إذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية في شمال

أفريقيا أملا فى الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت قبل الحرب : بل كانوا يجاهرون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية عند إقرار السلم مع ألمانيا فلتكن التضحية من الأراضى الأوروبية إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الأفريقية التى هى المدى الحيوى التاريخى للشعب الفرنسى .

ومن الغريب أن هذا الأمل الألمانى وهذا المنطق الفرنسى ترك شمال أفريقيا فى حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافئها لجمع قواتهم التى زحفت إلى قلب أوروبا ، فكان أن ساهمت الأمبراطورية الفرنسية فى تحرير أوروبا بل فى تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك ليس إلا ...

الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها اليها :

تمزق السور الفولاذى لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم أراضى شمال أفريقيا ، فرأى أهل مراكش وتونس والجزائر جنوداً من عناصر أخرى غير فرنسية ، ولا بد أنهم لمسوا وعاينوا أشياء جديدة ، ولكن البلاد التى خضعت لسنوات عديدة لأعمال العنف والتشريد كانت تتمخض بانبعاث جديد ووثبة شاملة ، ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعى القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ ما يجعلها تحس وتشعر بالرسالة التى تحملها للعالم . وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض بأساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات : وعرف الناس جميعاً أن أراضى تونس والجزائر ومراكش كانت وديعة فى يد الحلفاء وقد أعيدت لفرنسا بعد أن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع فى ركب الحضارة نحو الحرية وتقرير المصير كغيرها من بقاع الدنيا التى يسكنها الإنسان لا الحيوان .

أعود إلى الوراء ؟ أم عصر جديد ؟ هذه كلمة الأستاذ إسماعيل مظهر حينما عرض إلى مشروع الاتحاد الفرنسى ونحن نتفق معه فى صيحته ونقول :

إن الخطر الذى يبدو لنا هو أن توفق فرنسا فى إقناع العالم أن الاتحاد الفرنسى هو مشروع إنسانى يدعو إلى رفع مستوى شعوب الأمبراطورية ، ويعدّ تنفيذه تحقيقاً لما وعدوا به روزفلت فى اجتماع الدار البيضاء ، أو مرحلة فى طريق الرق الاجتماعى .

ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها فى الجزء الأخير من هذا البحث ونبرهن أنها أخطر بكثير مما نتصور ، وأنها ضربة موجهة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها ، وأنها أخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربى فى أفريقيا موطن الشعوب المظلومة

أحمد رمزى

وزارة المعارف

تعلن أنه قد تخلو بها أماكن لمدرسين للاشغال اليدوية بالمدارس الابتدائية والمدارس الريفية ، ويشترط فى راغبى التعيين بالمدارس الابتدائية الحصول على دبلوم الفنون التطبيقية وسيفضل من سبق لهم الاشتغال بالتدريس — كما يشترط فى راغبى التعيين بالمدارس الريفية أن يكونوا من الحاصلين على شهادة الدراسة الابتدائية ودبلوم الأقسام الصناعية أو الخمس سنوات (حديث) من قسمى النجارة والنسيج

فعلى راغبى التعيين تقديم طلباتهم لمكتب حضرة عميد مفتشى الأشغال اليدوية بالوزارة منذ الآن حتى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٧ ولا تقبل طلبات بعد ذلك وتعتبر جميع الطلبات التى قدمت قبل الآن لاغية . ٧٢٨٤